مركز الأهرام للتنظيم وتكنولوجيا المعلومات

المصدر: الاهـــــرام

التاريخ : ١٩٩٦/٦/٢٢

.. وبيوت زعماء مصر أيضا للبيع!

الخبر الذى علمته من المستشار عدلى حسين محافظ المنوفية عن بيع بيت الزعيم الراحل محمد أنور السادات، يعد خبرا مثيرا بكل المعايير! وسماح الدولة به يعد تهاونا فى حق هذا الزعيم الخالد الذى غير وجه التاريخ فى هذه المنطقة العربية، ورد لمصر كرامتها لأول مرة منذ بداية الصراع العربى - الإسرائيلى، وحقق أول انتصار عسكرى بعد سلسلة من الهزائم كادت تفقد شعبنا ثقته بنفسه كشعب محارب، وكانت رؤيته لمستقبل الصراع العالمى هى التى نقلت مصر فى الوقت المناسب من الجانب الخاسر فى الصراع إلى الجانب الرابح، وذلك قبل أن يتنبأ أحد فى المعمورة باختفاء الاتحاد السوفيتى من الوجود على يد الشعب السوفيتى نفسه وليس على يد الشعب الأمريكى. وبفضله كانت مصر هى الدولة الوحيدة فى المنطقة العربية التى حررت سيناءها فى الوقت المناسب فى الوقت الذى كان الجميع يراهنون على المجهول! بل إنه الزعيم الذى نقل مصر من اقتصاد تخلى عنه أصحابه ومبدعوه إلى اقتصاد أثبت انتصاره تاريخيا.

ويمكن للمؤرخين والاقتصاديين والاجتماعيين والمفكرين أن يكتبوا مجلدات فى تاريخ هذا الزعيم فلا يولونه حقه، ويكفى أن اسم مصر فى عهده اقترن بالسلام، بعد مبادرته التاريخية الشجاعة التى هزت العالم هزا، وتعلقت به أبصار كل فرد فى المعمورة على شاشات التليفزيون سواء كان رجلا أو امرأة أو طفلا بدون استثناء، مما لم يسبق له مثيل فى التاريخ بمثل ذلك الانبهار. ثم راح ضحية الإرهاب الذى يمثل اليوم الخطر الأكبر على أمن مصر وعلى أمن المنطقة العربية والعالم.

هذه الشخصية المصرية الأسطورية التى اقترن اسمها بمصر فى تلك الدراما الهائلة، لاتجد من مصر إلا كل جحود ونكران، بعد كل ماقدم لها من حياته ودمه وفكره بشجاعة نادرة وإنكار للذات، ولاتدرى مصر أنها بذلك تدمغ حضارتها على مدى التاريخ بما لايليق ببلد فى العالم يملك هذه الحضارة التليدة.

ففى كل بلد فى الدنيا تحرص الشعوب الحية الواعية على تخليد زعمائها الذين ضحوا بحياتهم من أجلها، لكى تضرب المثل للأجيال القادمة بالنماذج العظيمة من إنتاجها البشرى، فتحذو حذوها، وتتفانى فى رفع شأن بلدها، ولكننا فى مصر نلطخ الأبطال ونحرص كل الحرص على دفنهم، وإخفاء سيرتهم!، وفيها يعلو صوت الظالمين والمضللين على صوت المنصفين العادلين.

وليست هذه هى طبيعة الشعب المصرى الذى عرف بالوفاء، وإنما هى طبيعة اللئام الذين يستأمنهم الشعب على تاريخه لأسباب وظروف سياسية فى فترة ما، فيغلبون ميولهم المريضة على ميول الشعب النبيلة والسليمة، ويزورون تاريخه ويشوهونه.

هذه الشخصية المصرية الأسطورية التى اقترن اسمها فى العالم باسم السلام، تعرف شعوب العالم فضلها أكثر مما يعرفه شعب مصر. فعندما اغتيل السادات بيد الإرهاب الأسود - الذى كاد ينجح فى اغتيال زعيمنا محمد حسنى مبارك قبل عام واحد فى أديس أبابا - كنت أقوم برحلة فى أوروبا، وعندما وصلت إلى ميناء «أوستد» فى بلجيكا، بعد عبور المانش، جاءت المضيفة إلى الأتوبيس الضخم الذى يقل أعضاء الرحلة، تحمل الخبر المشئوم، وكان الفوج يتكون من اثنتى عشرة جنسية مختلفة تمتد على مساحة المعمورة، فإذا بالجميع يتملكهم الروع كما لو كان السادات هو بطلهم القومى!

وأثناء مرور الرحلة بمدن أوروبا وقراها، كنت أتلقى التعازى من كل من يعلم أنى مصرى! بل لقد نزلنا فى قرية نمساوية صغيرة بجوار «إنسبروك» اسمها «تسيريل»، وماكنت لأدخل محلا ويعرف أنى مصرى حتى يقدم لى خالص عزائه كما لو كنت من أسرة السادات! فقد كان الجميع يعرفون أن جميع المصريين هم أسرة السادات!

وقد حدث بعد بضع سنوات أن كنت أصحب وفدا أجنبيا فى مؤتمر بالإسكندرية، وفى أثناء عودتنا إلى القاهرة قدم لى الوفد طلبا بزيارة القرية التى ولد فيها السادات، وزيارة بيته!

فقد كان هذا الوفد يتصور أن مصر قد استغلت هذا الاسم الهائل فى تاريخها، لجعل قريته مزارا، وبيته منارة يرتفع عليها علم مصر الذى رفعه فوق أطلال خط بارليف الحصين، وقد خجلت وقتها أن أذكر أن مصر هى آخر بلد فى العالم يفكر فى هذه المسائل التى تشغل بال الأمم المتحضرة، التى تجعلها تخلد اسم كل من ضحى فى سبيلها وقدم خدمة لها ذكرها التاريخ!

ففى كل قرية تقريبا فى أوروبا تجد تماثيل فى ميادينها الصغيرة تخلد آباءها الذين أسهموا فى بناء حضارتها، وهى أسماء مجهولة لم تكتب عنها كتب التاريخ، ولكن أهل القرية يذكرونها، فما بال اسم السادات العظيم الذى لايجرؤ كتاب واحد من كتب التاريخ على أن يغفل اسمه؟

بل إنه فى بعض البلاد التى تفتقر إلى الأبطال تلجأ إلى قطاع الطرق المشهورين فتسبغ عليهم أوصاف البطولة! ومصر يمتلئ تاريخها بالأبطال ولكنها تظهرهم فى مظهر قطاع الطرق! فلم يلق زعيم من التشويه أكثر مما لقى السادات، وقد اتهمه بالخيانة من يلهثون اليوم ليحظوا بشرف هذه التهمة فلا يجدون سبيلا من تقبل المجتمع الدولى إلا بجهود دبلوماسية مكثفة تبذلها مصر! ولم يتعرض السادات لهذه التهمة لأنه باع أرض مصر رخيصة للعدو، وإنما لأنه حررها من دنس احتلال العدو!

ولم يحدث فى طول التاريخ وعرضه أن كان تحرير أرض الوطن خيانة!

وبيوت العظماء فى كل بلد من بلاد العالم المتحضر تحرص الدول على أن تجعلها مزارات، تجذب السياح من كل مكان لتتنسم عبق التاريخ.

وفى مصر تباع هذه البيوت فى اليوم التالى للوفاة كأى متاع رخيص!

ولاتفرق مصر بين بيت عاش فيه زكى جمعة (مع الاعتذار لعادل إمام!) وبيت عاشت فيه أم كلثوم، أو عاش فيه عبدالوهاب.

وعندما زرت بون لأول مرة كان أول همى أن أشاهد بيت بيتهوفن، وفى فيينا كنت سعيدا عندما وقفت أمام البيت الذى ألف فيه «الإيرويكا» أو سيمفونية البطولة، كما زرت فى النمسا كل بيت عاش فيه. وفى سالزبورج كان أول همى هو زيارة بيت موتسارت، والتنقل فيه وأنا مملوء انفعالا.

وقد كان بيت السادات فى ميت أبو الكوم جديرا بأن يرفع من شأن هذه القرية ويجلب الخير لأهلها لو تحول إلى مزارة يفد إليها السياح من كل مكان، ولو أنفقت الدولة بعض الأموال التى تنفقها على السياحة فى تطوير هذه القرية والاهتمام بها. فما كانت مثل تلك الأموال لتضيع هدرا وإنما كان العائد عليها من السياحة يغطيها وزيادة.

وهذا الكلام، كما ينطبق على بيت السادات ينطبق على بيت عبدالناصر، الذى أثق فى أن ملايين فى العالم العربى كانت تتوق إلى زيارته لتعرف كيف كان يعيش هذا الزعيم الذى هز العالم العربى هزا، وحملت سيارته على الرءوس، وألهم زعماء العالم الثالث النضال ضد الاستعمار، وكان قائدا عظيما من قادة حركة التحرر الوطنى.

وهو ما ينطبق أيضا على بيت مصطفى النحاس، ذلك الزعيم الذى قاد نضال هذه الأمة بشرف ونزاهة وشجاعة على مدى ثلاثين عاما، وملأ طرقات مصر صخبا وضجيجا ضد الاحتلال البريطانى، وكانت بريطانيا ترسل بوارجها الحربية إلى مياه البحر المتوسط كلما هز قوائم الاحتلال بخطبه النارية وأشعل الشعور الوطنى.

ومن الغريب حقا أنك تجوب شوارع مصر القاهرة ومدن القطر فلا تجد تمثالا للسادات أو لعبد الناصر أو لمصطفى النحاس، بينما تجد تماثيل لمصطفى كامل وسعد زغلول، مع أن واحدا من هؤلاء الثلاثة لايقل زعامة عن مصطفى كامل وسعد زغلول!

ولاأجد تفسيرا واحدا لذلك إلا الجحود! جحود ثورة يوليو الذى شمل أبناءها وخصومها على السواء! وهى خصيصة لم تتصف بها ثورة ١٩١٩، التى كرمت زعيمها سعد زغلول بإقامة التماثيل له فى القاهرة والإسكندرية.

وقد يظن البعض أن إقامة التماثيل للزعماء هو من أجل الزعماء أنفسهم، والحقيقة أنه من أجل الشعب الذى أنجب هؤلاء الزعماء، ومن أجل تربية الأجيال على التعرف على زعمائها الذين قادوا مسيرتها وضحوا من أجل الوطن. بل هو وسيلة لتعليم الجيل الجديد إنجازات الجيل القديم.

فأذكر منذ سنوات طوال أنى كنت أصحب ابنى الصغير فى بعض طرقات القاهرة، وعندما وصلنا إلى تمثال سعد زغلول على كوبرى قصر النيل، سألنى الطفل عن هذا التمثال، ومغزاه، وشخصية سعد، وتاريخه، ووجدت نفسى مرغما على أن ألقى عليه درسا فى تاريخ الحركة الوطنية!

وفى كل بلد من بلاد العالم تقوم تماثيل العظماء بهذا الدور تماما، فهى رمز لقطعة من التاريخ القومى لكل بلد، يذكّر الناس به، وأنموذج للبطولة السياسية أو العسكرية أو الفنية التى تذكر الشعوب الأخرى بأن هذا الشعب قد أسهم فى مضمار الحضارة وأنه يحفل بالأبطال.

لذلك فإنى فى هذا المقال أطالب الدولة بالمسارعة بمنع إتمام جريمة بيع بيت السادات بقرية ميت أبو الكوم، وتعويض الورثة عنه التعويض اللازم، وتحويله إلى مزارة بكل مايترتب على ذلك من إجراء التطوير اللازم للبلدة التى أنجبت السادات العظيم، ينقلها من العصر الوسيط الذى تعيش فيه إلى العصر الحديث، بما يتناسب مع عظمة الزعيم ودوره الوطنى المجيد فى تاريخ مصر.

كما أطالب بإقامة مسابقات لعمل تماثيل للزعماء الثلاثة، كما تفعل الشعوب المتحضرة فى كل أنحاء المعمورة، وأن تختار الميادين التى تقام فيها فى أبرز الأماكن التى شهدت نضالهم من أجل مصر، وتحديهم للاستعمار.

ولكن هذا يتطلب من الجميع الاتجاه إلى وجه مصر وحدها، وتنقية ضمائرها، والتجرد من النزعات الحزبية التى تناصر هذا الزعيم أو ذاك، وتعادى هذا الزعيم أو ذاك، فكلهم أبناء مصر، وكلهم أصاب وأخطأ، ولكنه لم يخن أو يتهاون، وكلهم استطالت قامته بزعامته فوق قامة الحاقدين والموتورين والأقزام.

د. عبدالعظيم رمضان